القصة العربية في افريقيا الشمالية

يشتد اهتمام الاوساط الأدبية في فرنسا بما يصدره ادباء افريقيا الشمالية ، باللغة الفرنسية ، من آثار ادبية تكتسب يوماً بعد يوم ميزات وخصائص ، جديرة بها ان تخلق مدرسة ادبية جديدة في النتاج الفرنسي المعاصر[1] . وتذكر ، في هذا الصدد ، اسماء ادباء من افريقيا الشمالية ، وخاصة من الجزائر ، حظيت آثارهم بالتقدير ، ونالت بعض الجوائز الأدبية الكبرى . وعلى رأس هؤلاء ألبير كامو Albert Camus وعمانوئيل روبلس Emmanuel Roblès وكلود دوفريمنفيل Claude de Freminville وسواهم ممن بدأوا انتاجهم في اثناء الحرب الاخيرة وبعدها . ومنذ عامين او ثلاثة نشأ جيل جديد من الادباء الافريقيين تميّز نتاجهم ببروز اللون المحلي الذي يكشف عن علائق الانسان بارضه واقليمه . ومن هؤلاء مولود فرعون ومحمد ديب Mohammed Dib الخ . .

وطبيعي ان تشجع دور النشر الفرنسية ، سواء في افريقيا الشمالية او في فرنسا ، نشر هذا النتاج ، ما دام مكتوباً باللغة الفرنسية . . اما تشجيع الآثار الأدبية المكتوبة باللغة العربية ، لغة البلاد ، فأمر لا محل له ، او هو امر غير مرغوب فيه ! . . ومن هنا كان ضعف الأدب العربي إجمالاً في تلك البقعة من افريقيا . على ان هذا الضعف يتفاوت قوة – اذا صح التعبير – بين المناطق الثلاث التي تؤلف تلك البلاد ، ولا بد هنا من التمييز بينها .

فان الجزائر التي ترزح تحت الاستعمار منذ اكثر من قرن والتي لا تنعم بمركز ثقافي اسلامي ، خلافاً لتونس ومراكش ، هي اضعف نقطة في الثقافة العربية بافريقيا الشمالية . والحق ان هذه الثقافة تكاد تكون ممحوّة امام الثقافة الفرنسية هناك . ومن هنا نفهم ان يكون معظم الادباء الذين يكتبون بالفرنسية من اصل جزائري .

واما في مراكش ، فبالرغم من وجود مركز ثقافي عربي اسلامي ، هو جامعة القرويين في فاس ، فلا شك في ضعف الجهود المبذولة في العهد الحاضر من اجل « تعصير » التعليم العربي ونشره . وهكذا تنزع الثقافة الحديثة التي ينشرها التعليم الى ان تكون ثقافة فرنسية فحسب .

واما في تونس ، فيبدو ان مركزين رئيسيين لا يزالان يحافظان على حياة الثقافة العربية الاسلامية ؛ نقصد جامعة الزيتونة القديمة من جهة ، وكلية « صادقي » الحديثة التي تأسست قبل الحماية الفرنسية ببضع سنوات ، من جهة اخرى . والحق ان التعليم العربي في جامعة الزيتونة كان منذ الربع الاخير من القرن التاسع عشر حتى ايامنا هذه ، موضوع كثير من التحسينات من اجل دفعه في طريق النظم الحديثة . وبالامكان القول ان هذه الجامعة هي التي تقدم لتونس كلها جمهور المثقفين العرب من الادباء والقراء على حد سواء . واما كلية « صادقي » التي كان مؤسسها الوزير خير الدين (١٨١٠–١٨٩٠) يودّ ان يجعل منها معهداً للتعليم العالي العصري يساعد على جعل الثقافة العربية في تونس ثقافة عصرية ، فيبدو انها قد كفّت منذ وقت طويل عن القيام بهذه المهمة . فالحق انها اصبحت مؤسسة للتعليم الثانوي الفرنسي ، وان كان التعليم العربي لا زال قائماً فيها . واياً ما كان ، فقد تخرّج من هذه الكلية عناصر طيبة من النخبة الفكرية التونسية تجمع العلم الحديث الى معرفة جيدة باللغة العربية .

وواضح ان النتاج الادبي ، في هذا الوسط الثقافي ، هزيل بالاجمال . ومردّ ذلك في الدرجة الاولى ان الثقافة العربية الاسلامية في البلاد الافريقية الثلاثة ليست معتبرة من قبل المسؤولين الحكوميين ثقافة وطنية قومية جديرة بها أن تكون موضع عنايتهم بهذه الصفة .

ويبدو ان هناك امراً لا شك فيه من الناحية التاريخية ، هو ان « تنازع نفوذ » قام ولا يزال قائماً ، في اشكال متشابهة وعهود مختلفة ، بين الثقافة واللغة العربية ، والثقافة واللغة الفرنسية . وفي هذا الصراع ، تتفاوت الانتصارات والخسائر التي تصيبها هذه الثقافة او تلك بين بلد وبلد . ويبدو كذلك ان الثقافة العربية تحافظ على مراكزها في تونس خيراً مما تحافظ عليها في مراكش والجزائر . وهي على كل حال في موقف دفاعي .

(١) راجع استفتاء مجلة « Les Nouvelles Littéraires » العدد ١٣٦٤ تاريخ ٥٣/١٠/٢٢ .

من اجل هذا ، يسهل علينا ان نفهم ان تكون مشاركة الحركة الثقافية في افريقيا الشمالية بالنتاج العربي الادبي مشاركة محدودة .

ولا شك في ان تونس قد شهدت في العقود الثلاثة الاخيرة عدداً من الادباء الذين تحتفظ آثارهم بقيمة ادبية غير مشكوك فيها . ومن هؤلاء في ميدان الشعر الخزندار ومصطفى آغا والعربي قبادي. والعالم العربي يعرف شاعراً تونسياً عظيما مات وهو في ابان شبابه وكان يَعِدُ باجمل الوعود، هو ابو القاسم الشابي الذي يعد في طليعة الذين عرفتهم العربية في القرن العشرين .

★

واما في ميدان القصة ، فان معلوماتنا عن انتاج الجزائر ومراكش تكاد تكون معدومة ، بسبب ان المصادر والآثار نفسها معدومة . وحتى في تونس، نادرة جداً هي المؤلفات المطبوعة. وان معظم القصص التي اتيح لنا ان نطلع عليها منشورة في مجلات ادبية لم يكن صدورها منتظماً، كـ«المباحث» و «الثريا» و«العصبة» و « الندوة » . [1]

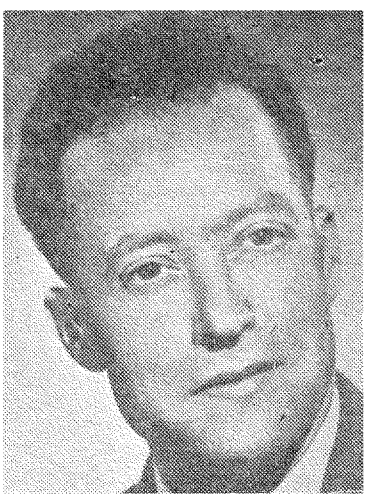

واهم النتاج القصصي الذي ظهر في احدى هذه المجلات (المباحث، العام ١٩٤٥)، هو نتاج محمود المسعدي الذي نشر رواية كاملة ، وبعض فصول من رواية اخرى . وتطغى على هذا النتاج نزعة فلسفية عميقة لا يخلو ادراكها من صعوبة .

اما الرواية الكاملة التي نُشرت متسلسلة في « المباحث » فعنوانها « مولد النسيان » . ويجد القارىء فيها عدد الاشخاص محدوداً جداً : مدين ، الطبيب ، وليلى زوجته وخادمتها هند، وشخص رابع يدعى « رنجهاد » هو في الحقيقة رمز اكثر مما هو واقع . اما مدين فتستأثر بذهنه مشكلة الموت بسبب ذكرى امرأة كان قد احبها فماتت . وقد كان يحاول ان يجد حل المشكلة بتجارب مختبرية ، وكان يعتقد ان هذا الحل يتم بقتل الذكرى ، اي الزمن الذي هو الشعور بالبقاء والديمومة والصيرورة وكان يعتقد كذلك ان نزهات مع رنجهاد في عالم من الاحلام والسحر لا بد من ان تعينه على ذلك . وهكذا نراه يتجول ، بنوع من الرؤية المأخوذة ، في عالم الاموات حيث يلاقي بعضُ الموتى ، قبل ان ينعدموا نهائياً ويفقدوا كلياً الشعور بوجودهم الذاتي ، آلاماً قاسية جداً بسبب من ذكرى حياتهم الجسدية التي تظل معلقة بارواحهم. وتقوم في ثنايا الرواية مناقشات واحاديث بين مدين وزوجته ليلى تلقي بعض الاضواء على المشكلات التي يطرحها المؤلف . ويبدو انه ليس هناك في نظره الا مشكلة واحدة ، هي مشكلة الكائن ككل لا يتجزأ ولا يمكن ان يقوم فيه اي تفريق بين الجسد والروح ، وإلا انعدم الكائن هو بالذات . ويظهر ان ما يستشعره المؤلف آخر الامر كهلاك للكائن الذاتي ، هو ان هذا الكائن لا يستطيع ان يدرك نفسه الا بما يميّزه عن سواه ، ولا يمكن ان « يوجد » إلا بان يتجسد في شكل مادي وينفصل بذلك عن « الكائن الكلي » . ثم اننا نرى « مدين » في اللحظة التي يحسب فيها انه اكتشف سر النسيان ، ينحدر في وهم من « المشاركة » في « الكائن الاعظم » ويمتزج بكل ما يعيش . ولكن المخدر الذي كان يحسب انه هو الذي اتاح له اكتشاف سرّ النسيان ، ما يلبث ان يقتله . وهكذا تنتهي الرواية بخاتمة يائسة متشائمة : من العبث ان يحقق الانسان في نفسه نسيان الوجود الذاتي المحتجز في الحدود دية للجسد وحدود زمن الحياة .

محمود المسعدي

وبالرغم من العناية التي يبذلها محمود المسعدي للتعبير عن افكاره وارائه بشكل قصصي ، فان هذه الرواية تقتضي القارىء تنبُّهاً موصولاً ربما اجهده وارهقه ، لا سيما ان كان معتاداً قراءة القصص التي ليست لها امتدادات فلسفية . على ان بامكاننا ان نقول : إن « مولد النسيان » ربما كانت ، في الادب العربي الحديث، الرواية الاولى التي تضمّ نزعة واضحة الى جعل الابطال يعبّرون بحياتهم الداخلية وآرائهم واعمالهم عن طائفة من الافكار حول قضية انسانية عامة ؛ وهذا هو حقاً ما نفتقده في الروايات العربية المعاصرة ، وهذا ما ميّز القصص الغربي في آخر مراحله.

وليس من العسير ان نجد في « مولد النسيان » نزعة تعبّر عن فلسفة « العبث » L'Absurde هذه التي يحمل لواءها اليوم

(١) حدثنا بعض التونسيين في باريس ان هناك مخطوطات كثيرة لا يجد اصحابها المطابع لاصدارها فتظل نائمة في الادراج .

اديب افريقي آخر ، نعني كامو . ومن الملاحظ ان النتاج الافريقي يتميز يوماً بعد يوم بهذه النزعة التي وصفها « سارتر » في حديث له عن « كامو » ، بانها لون من « التفاؤل » الاسود ..

ولا يصعب على القارىء ان يلاحظ ان المسعدي يبذل جهداً واضحاً لاكساب اشخاص قصته ، على انها تجريدية ، نوعاً من الحياة يمكّنه من عرض افكاره بشكل محسوس . فهو يضع الحبكة في اطار خاص وديكور خاص ليعلّق فكرته الفلسفية بلوحات طبيعية معروفة . من ذلك مثلاً هذا الحديث في اول الرواية بين مدين وليلى حول الموت ، وهو حديث يجري حول طاولة وسلة من الفاكهة ، فيبدأ بالغذاء الجسدي ويتسلسل الى الجسم المعرّض الى دود الارض ، ثم يبلغ قضية الحياة والموت .

واما الفصول المنشورة في «المباحث» نفسها (العام ١٩٤٦) من رواية المسعدي الثانية ، « حدّث ابو هريرة قال .. » فهي ترتدي الطابع الكلاسيكي « للحديث » أو « الخبر » . ولما كانت هذه فصولاً غير كاملة فليس بوسعنا هنا ان نحللها . على ان بوسعنا ان نفهم منها ان الموضوع يدور حول دراسة التطوّر النفسي لبطل القصة « ابو هريرة » الذي يعاني عدداً من التجارب الهامة : تجارب مادية وجسدية (حديث البعث) ، تجارب بسيكولوجية (حديث العدد) ، تجارب اجتماعية (حديث الكلب) الخ ..

ولا بد لنا اخيراً من الاشارة الى اسلوب المسعدي . فهو شديد الصفاء والجزالة ، بل لعله من اجزل الاساليب العربية الحديثة وأمتنها تركيباً . إنه احدى المحاولات الناجحة للتعبير عن احدث الآراء باسلوب كلاسيكي اللغة ، وهذه في الحق مدرسة ادبية جديدة في التعبير .

★

ولا نخال ان في اهتمامنا بانتاج محمود المسعدي أية مبالغة . فان القصص التي أتيح لنا ان نطلع عليها لبعض الكتّاب التونسيين المعاصرين تدلل ان المسعدي يملك أنضج فكر وأقوى فن قصصي في افريقيا الشمالية .

فان كتاب محمد علي الدوعاجي « جولة بين حانات البحر الابيض المتوسط » يمتّ الى كتب الرحلات ، لا الى الفن القصصي . ويتميز المؤلف بحسّ فكاهي مرهف ؛ وقد كتب عدداً من الاقاصيص لا يخلو بعضها من أهمية ، كأقصوصة « أمن تذكّر جيران بذي سلم » [١] التي تصوّر امانة رجل طوال ثلاثين سنة لذكرى امرأة اتاحت له ، وهو طفل بعد ، ان ينعم بمباهج عيد كان محروماً منه ؛ واقصوصة « نزهة رائعة » [٢] وفيها يمتزج الوصف بالفكاهة .

وتحمل أقاصيص عبد الرزاق كرباكه (١٩٠١–١٩٤٥) المنشورة في مجلة « الثريا » تحت عنوان « عبرة في قصة » طابعاً ثقيلاً من توخّي العظة الاخلاقية ، وان كانت لا تخلو من نقد المجتمع وتصوير آفاته .

ومن القصص الشديدة الايحاء قصة « الرماد » [٣] بقلم محمد العربي وهي تصور احاسيس شاب يظهر بمظهر اللامبالاة والبرودة ، ولكن اعماقه تضطرم بنيران الثورة .

ودون ذلك في الاهمية ، اقاصيص توفيق ابو غدير التي تبدو تلخيصاً لروايات طويلة اكثر منها اقاصيص ؛ واما ما كتبه بكير فيمتّ الى المقامات باوثق الصلات ؛ وفي قصص عياش معرّف يغلب الغريب والعجيب على الطبيعي المألوف ، وتنهض العُقَد احياناً على مزاح او تفكهة [٤] . على ان له بعض اقاصيص جيدة تبشر بموهبة قصصية كـ « الغيرة » و « الولي » ...

★

وبعد ، فان النتاج الادبي العربي في افريقيا الشمالية لا يزال هزيلاً بالاجمال . على انّ من يطالع الصحف الادبية التي ترد من تونس ومراكش كـ « الندوة » و « الانوار » يشعر بان ادباً عربياً فتياً بدأ يطلع ثماره ، بالرغم من مختلف العقبات التي تحدث ضغطاً ثقافياً من شأنه ان يؤخر ازدهار الادب ونموه ، ويحول دون ان تنعم العبقريات المكبوتة بكامل حريتها في التعبير .

وان كل ما نتمناه هو ان تتمكن افريقيا الشمالية من الفوز باستقلالها وحريتها ، فتتيح للحريات ان تنطلق وللادب ان يزدهر ، وبذلك تنضم الى موكب النهضة الادبية الحديثة في مختلف الاقطار العربية ، وتغني هذه النهضة بلون جديد من النتاج لا يعوزه الابداع ولا يفتقر الى العمق والنضج .

سهيل ادريس

---

(١) مجلة « المباحث » العام ١٩٤٥ ، العدد ١١ .

(٢) مجلة « المباحث » العام ١٩٤٦ ، العدد ٦ .

(٣) مجلة « المباحث » العام ١٩٤٥ ، العدد ١٠ .

(٤) راجع اقاصيص « سبيه القط » و « في رمضان » و « العبقري » الخ ... في اعداد مختلفة من مجلة « العصبة »